المقدمة

ما أعظم أمة الإسلام بالإسلام؛ وتلك هي صفحة من صفحات تاريخها المجيد الخالد. صفحة عرفت باسم (العصر العبّاسي) وهي صفحة امتدت على عمر الزمن زهاء خمسة قرون (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ = ٧٤٩ ـ ١٢٥٨ م) فهل حدثت خلال هذه الفترة الزمنية تطورات في فن الحرب الإسلامي؟.

يتطور فن الحرب على ما بات متفقاً عليه، وفقاً لتطور الوسائط القتالية؛ ولقد بقيت الوسائط القتالية المستخدمة بعيدة عن كل تطوير كبير. وإن التغيير في شكل السيف أو وزنه (ثقله) أو اكسابه مزيداً من الصلابة والقسوة؛ لا يشكل تغييراً كبيراً له دور في التأثير على تطور فن الحرب. وكذلك الأمر بالنسبة للقسي والسهام وسواها؛ أو حتى بالنسبة لوسائط القتال الجماعية مثل المجانيق والعرادات والدبابات وسواها. وإذن فالمفروض ألا يحدث تطور في فن الحرب خلال هذه الحقبة الزمنية، غير أن عجلة التاريخ تسير نحو التطور المستمر، وهي لا تعرف الهدوء أو التوقف. وإذا ما كان التطور قد ثبت أو جد في هذا المضمار، فهذا يعني ضرورة البحث عمّا حدث من تطور في مجالات أخرى. ويبرز استعراض مسيرة الاحداث أنه قد حدثت تطورات كبيرة ومثيرة في فن الحرب الإسلامي خلال هذه الفترة الزمنية سواء في مجال تطوير الجيوش، أو في مجال تسلحها، أو في مجال اكتساب الكفاءة العالية في استخدام هذه الأسلحة، والأهم من ذلك هو تطوير الاعمال القتالية على مستوى العمليات وعلى مستوى ادارة الحرب. وهنا يبرز دور الإنسان المبدع في تطوير مبادىء الحرب؛ وفي تطبيق هذه المبادىء بحسب الظروف التي تفرضها مسارح الأعمال القتالية.

لقد عاشت الدولة العباسية حياة الحرب الدائمة على جبهتيها الداخلية والخارجية وهي جبهة واسعة الأرجاء، مترامية الأبعاد؛ ورثها العباسيون عن أبناء عمومتهم

الأمويين. ولئن قصروا عن زيادة اتساعها، إلاّ انهم جهدوا في المحافظة عليها: واعترضت سبيلهم عقبات وصعوبات لا نهاية لها، كان أولها خروج الأندلس عن طاعة العبّاسيين، واستقلال الحكم الأموي فيها. ثم أعقب ذلك تعاظم مراكز القوى في الأقاليم الإسلامية المختلفة، الأمر الذي أدى الى ظهور صراعات داخلية حادة بين هذه المراكز بغضها ضد بعض؛ وقد تكون هذه الظاهرة هي أمر طبيعي عند وضعها في إطاريها الزمني والمكاني، فقيام دولة واسعة الأرجاء تتطلب نوعاً من الإدارة الذاتية لكل اقليم من الأقاليم. وكان ضعف الارتباط والبعد الجغرافي وتوافر القدرة القتالية في مجتمع يعتمد على الحرب، خلال حقبة زمنية مثل تلك الحقبة، هو مما يساعد على نزوع الطامعين ـ أو الطامحين ـ نحو الاستقلالية؛ وبالتالي؛ دخول دائرة المنافسة مع مراكز القوى الأخرى. غير أن ذلك لم يدمر مبدأ (وحدة القيادة) فقد بقي للخليفة العبّاسي دوره في منح هذه المراكز موافقته على وجودها، أو حرمانها من هذه الموافقة. تبعاً لالتزامها بالدين الإسلامي ومبادئه وسننه، أو الابتعاد عنها. وهكذا على سبيل المثال، فقد حرصت كافة الدول والكيانات التي عاشت في ظل الوحدة العباسية على الإبقاء على هذه الوحدة. **ولقد حرص خلفاء بني العبّاس في الوقت ذاته على التمسك بحق (الطاعة والجماعة) ضمن الحدود المقبولة والمعقولة.** ولقد ضعف أمر الخلفاء وتدهورت مكانتهم في بعض الاحيان، ثم انتعشت وقويت في أحيان أخرى، تبعاً لظهور خلفاء أقوياء، وتبعاً لما كان يتوافر لهؤلاء الخلفاء من دعم مراكز القوى. وإلى جانب هذه القوى؛ ظهرت هناك حركات أو كيانات منحرفة؛ مثل ثورة الزنج وحركة ـ أو دولة القرامطة ـ ثم حركة الإسماعيلية وسواها، وقد عملت هذه الحركات على شنّ حرب شعواء من داخل الدولة، وتطلب القضاء عليها جهداً كبيراً. وبالإمكان النظر الى هذه الحركات بدورها على أنها إفراز طبيعي لمجموعة من العوامل، امتزج فيها الفهم الخاطىء للدين في وسط الشعوب حديثة العهد باعتناق الإسلام، الى جانب التيار الذي خضع للإسلام ولكنه بقي على عدائه للعرب المسلمين الذين حملوا الدين الإسلامي الى أرجاء الدنيا، وانعكس ذلك ببذل المحاولات المتتالية لتشويه الدين الإسلامي ذاته. فكانت هذه الحركات هي استطالة لظواهر الزندقة

الفردية التي برزت بواكيرها في العهد الأموي ثم في العصر العباسي الأول وتطورت لتأخذ شكل حركات قوية جاهرت بعدائها للإسلام والمسلمين، مستفيدة من هياج الحرب الذي هيمن على المجتمع الإسلامي. وهكذا فقد كان مناخ الحرب من العوامل الاساسية وربما الحاسمة في لجوء هذه الحركات الى السلاح، والاحتكام الى الحرب.

كان من طبيعة الأمور، تبعاً لذلك؛ أن يتطور فن الحرب ليجابه كل التحديات الداخلية والخارجية. وقد يكون من عجب أن تتمكن الدولة العباسية من البقاء وسط هذه العواصف الهوجاء والرياح العاتية. ويزول كل عجب عند النظر بعمق للعامل الأساسي والحاسم الذي ساعد خلفاء بني العباس فوق قمة الأحداث. لقد كان الفضل في ذلك للإسلام؛ ولقوة الإسلام.

لقد كان ظهور مثل هذه الحركات حافزاً لظهور حركات مضادة للأخذ بنهج السلف والالتزام بكتاب الله وسنة رسوله، وكان الصراع نموذجاً مطوراً لحروب الردة؛ وكان النصر النهائي للإسلام ولأهل الإسلام ممن أخذوا بكتاب الله وسنة رسوله. ولقد حاولت مذاهب شتى تفسير هذا الصراع وتحميله مضامين تجاوزت حدود الزمن وتجاوزت الحدود الجغرافية لمسيرة الأحداث. وليس هناك ما هو أكثر خطأ في قراءة التاريخ وتفسيره من محاولة تحميل احداثه مضامين أو اعطائه أبعاداً مغايرة لمضامينه وأبعاده في إطاريه الزماني والمكاني. لقد تميزت هذه الحروب بجميع ما تتميز به الحروب الأهلية ـ الدينية من التطرف والعنف ونهب الأموال. وهذه ظاهرة لطالما تم التركيز عليها من قبل المحدثين الباحثين عن الإساءة للإسلام وأهله. فهذه الحروب شأنها شأن حروب الفتح، لم تكن بحثاً عن المال؛ ولكن المال كان وسيلتها. والشواهد كثيرة، منها قول المنصور: **«لولا أن الأموال حصن السلطان ودعامة الدين والدنيا، وعزها وزينتها، ما بت ليلة وأنا احرز منه ديناراً ولا درهماً، لما أجد لبذل المال من اللذاذة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة»**. وهكذا فإن مصادرة أموال المتمردين، أو نهبها، لم يكن إلاّ من أجل حرمان هؤلاء من قوتهم. والأمر مماثل بالنسبة لفرض الغرامات الحربية على الروم وسواهم من أمراء الأقاليم المتاخمة للحدود الإسلامية. فالقضية الاساسية هي قضية زيادة قوة الدولة الإسلامية

وإضعاف خصومها. وعلى كل حال فهذه القضية هي قضية جدل عقيمة وضعيفة، ويكفي للبرهان على ضعفها الإشارة الى ما تطبقه الدول العظمى في الأزمنة الحديثة، في مجال الاقتصاد، لإضعاف خصومها واستنزاف قدراتهم، بما يطابق عملية (فرض الغرامات) ولكن بأساليب اكثر تطوراً. وهنا أيضاً، لا بد من وضع هذه الظاهرة في إطاريها الزمني والمكاني؛ فقد كانت الدول المتاخمة للدولة الإسلامية تطبق هذه الأساليب ذاتها. فكان من غير الطبيعي الأخذ بنهج لا يتوافق مع تلك الظروف.

لقد كانت وفرة الكيانات التي عاشت في ظل الدولة العباسية؛ وكثرة مراكز القوى؛ وتنوّعها، وأشتات أقوامها، ودورها التاريخي، من العوائق التي جابهت البحث؛ إذ ظهر أن التعرّض لها جميعها، هو ممّا يخرج بالبحث عن هدفه (فن الحرب) ولهذا كان لا بد من الاختيار والانتقاء، تبعاً لهدف البحث فقط وليس لأي سبب آخر. وفي مجال البحث أيضاً؛ جرى الاعتماد على النص التاريخي - قدر المستطاع - بسبب ما توافر له من رشاقة في الأداء وأصالة في التعبير وصدق في المعالجة. وكذلك فقد جرى ذكر الأحداث مع تحديد تاريخ وقوعها (بالهجرية) وذلك مما يساعد الباحث على الرجوع الى تلك الأحداث في مراجعها الأساسية (تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ، وتاريخ الإسلام للذهبي).

لقد تداخل تاريخ الدولة العباسية بتاريخ الحروب الصليبية القديمة؛ فقد جرت الحروب الصليبية خلال مائة عام ونيف، بوجود الدولة العباسية، فكان لا بد من اقتطاع هذا القسم، وإدخاله في (تاريخ الحروب الصليبية) بهدف تحقيق التكامل في البحث.

ويبقى للتاريخ جوانبه السلبية؛ وصفحاته الايجابية، وتبقى أحداث التاريخ إرثاً للإنسانية جميعها، وهي إرث لأبناء التجربة وصانعيها قبل سواهم من أبناء الإنسانية؛ فهم الذين ضمخوها بدمائهم ومهروها بتضحياتهم ولذلك فهم أحق بالإفادة منها وأجدر. ومن هذا المنطلق؛ وبهذا الحافز، أخذ البحث طريقه للوجود. وعلى أمل أن يحقق البحث هدفه، أرجو الله توفيقه.

بسّام العسلي